

التبيان في تفسير القرآن

(183) ساعة. وقال البلخي: وأقل من شهر، ولا يدري ما بينهما إلا الله، فلما أكمل الله عقله وخطر بباله ما يوجب عليه النظر وحركته الدواعي على الفكر والتأمل له. قال ما حكاه الله، لأن إبراهيم (ع) لم يخلق عارفاً بالله، وإنما اكتسب المعرفة لما أكمل الله عقله، وخوفه من ترك النظر بالخواطر، فلما رأى الكوكب - وقيل هو الزهرة - رأى عظمها واشراقها وما هي عليه من عجب الخلق، وكان قومه يعبدون الكواكب، ويزعمون أنها آلهة - قال هذا ربي؟ ! على سبيل الفكر والتأمل لذلك، فلما غابت وأفلت، وعلم أن الأفول لا يجوز على الله علم أنها محدثة متغيرة لتنقلها، وكذلك كانت حاله في رؤية القمر والشمس، وأنه لما رأى أفولهما قطع على حدوثهما واستحالة إلهيتهما، وقال في آخر كلامه " اني برئ مما تشركون اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض حنيفا وما أنا من المشركين " وكان هذا القول منه عقيب معرفته بالله وعلمه بأن صفات المحدثين لا تجوز عليه. فان قيل: كيف يجوز ان يقول: هذا ربي مخبراً، وهو يجوز أن يكون مخبره لأعلى ما أخبر، لانه غير عالم بذلك، وذلك قبيح في العقول، ومع كمال عقله لا بد أن يلزمه التحرز من الكذب؟ ! قلنا عن ذلك جوابان: احدهما - انه قال ذلك فارضاً مقدراً، لا مخبراً بل على سبيل الفكر والتأمل، كما يقول الواحد منا لغيره اذا كان ناظراً في شئ ومحتماً بين كونه على إحدى صفتين: انا نفرضه على احدهما لننظر فيما يؤدي ذلك الفرض اليه من صحة او فساد، ولا يكون بذلك مخبراً، ولهذا يصح من احدا اذا نظر في حدوث الاجسام وقدمها ان يفرض كونها قديمة ليتبين ما يؤدي اليه ذلك الفرض من الفساد. والثاني - انه أخبر عن ظنه وقد يجوز ان يكون المفكر المتأمل طائفاً في حال نظره وفكره ما لا اصل له ثم يرجع عنه بالدلة والعلم ولا يكون ذلك